

الفصل الأول

نظرة عامة حول التربية الإسلامية

* تقديم :

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية . على أن يستندوا على التربية في توجيه حياتهم . غير أن التربية بهذا الشكل كانت تقليدية محضة . مما أكد من وجهة النظر الحديثة . ضرورة جعل التربية تأخذ شكلا آخر . وجعلها طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية . ومرتبطة بمشكلات الفرد والجماعة . ومراة يرى المجتمع فيها نفسه . ويؤكد فيها ذاته .

والمجتمع الذي ينتظم جزء كبير من أفراده في مراحل التعليم المختلفة . لابد وأن يصبح التعليم قوة حاسمة في تحديد شكل هذا المجتمع . والتربية بهذا تؤدي دورها على مستوى الفرد والجماعة . وتؤكد ارتباطها بمشكلات المجتمع ومقدراته .

والتربية الحقيقية هي التي تؤدي دورها في بناء المجتمع . ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ؛ تنطلق فيه طاقات الأفراد وتستثمر فيه قدراتهم ؛ ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد طبيعية الى طاقات تكون في خدمة الانسان المعاصر .

ومن هنا فان الأثر الذي تحدثه التربية في المجتمع هو المقياس الحقيقي لدى فعالية النظام التعليمي . داخل المجتمع بصرف النظر عن حجم هذا النظام . والتربية بهذا تهدف بالدرجة الأولى ؛ الى تنمية الفرد بشكل كامل عقليا وبدنيا وروحيا وعاطفيا وجماليا واجتماعيا وأخلاقيا وثقافيا وسياسيا . الخ .

وإذا صح كل ما تقدم فلا شك أن الجانب التطبيقي السلوكي يحتل وسط تلك الأغراض المكان الأول . وخصوصا أن السلوك هو المحك لاساسى لقياس مدى استيعاب الفكر النظرى . وقدرة الفرد على التخلق بما ثبت فيه من ركائز أصبحت سمة من سمات حياته . وصفة مميزة فى تعامله مع أقرانه من بنى البشر .

وإذا كانت العلاقات بين الأفراد هي التى تكشف عن مضمون مدى استيعاب الإدراك الواعى لأغراض التربية : بما تشتمل عليه من تطبيق عملى لتلك الأغراض . فما هي نظرة الاسلام الى تلك الجوانب السلوكية وأهميتها فى تربية الانسان المسلم ؟ وقبل ذلك ، ما هو الاطار النظرى العام للتربية الاسلامية .. ؟

هذا ما سوف نناقشه فى هذا البحث آخذين فى الاعتبار أننا سوف نسوق الحديث عن واقع وحال التربية الاسلامية بشكل اجمالى . كما سنعطى نموذج وحيدا ، من أساليب التربية فى الاسلام ، تاركين التفصيل الموسع . والشرح المفصل لمناسبة أخرى ، وعسانا وقتها نكون قد وفقنا الى كشف النقاب عن أسرار جديدة . حول ما تعانيه التربية الاسلامية سواء على أيدى كتاب فى التربية مسلمين أو على أيدى غيرهم من التربويين ممن لا يعتنقون الاسلام . وقبل كل شئ وبعدده . فان النية خالصة لله رب العالمين : أن يكون هذا البحث مفتتحا وليس خاتمة ؛ وبدءا وليس نهاية (فالجمال على حد علمى خلو من الكتابة المتخصصة التى تعتمد على أصول من كتاب الله وسنة رسوله . وتراعى فى نفس الوقت الحيطة فى التفسير للكتاب الكريم ، والتحليل لمواقف الاسلام من القضايا التربوية) .

وعموما فأول الغيث قطرة ؛ وعسى الله أن يأتى بالفتح ويهيىء لجال التربية الاسلامية من يدفع عنها غائلة الدخلاء عليها . المنبئين داخل أفنائها . من يحاولون أن يثروا ثراء أدبيا أو ماديا على حسابها . وان غدا لناظره قريب ؛ وعسى ذلك أن يكون قريبا .

✽ التربية الاسلامية .. لماذا ؟

بادئ ذى بدء فلا غرابة ونحن على أبواب هذا البحث . أن نقرر أنه لا يوجد بين جميع النظم التربوية قديمها وحديثها نظام تربوى

استطاع أن يولى اهتمامه للإنسان من جميع جوانبه العقلية والروحية والبدنية . سوى نظام واحد هو التربية الإسلامية .

وإن كان المنطق والتفكير العلمى يحتمان بالضرورة طرح المقدمات وتحليلها من أجل الوصول الى النتائج فإننا لن نجافى الحقيقة حينما نضع هذه النتيجة المسبقة قبل الخوض في حيز الدليل والبرهان .

ومن غريب الأمر أن يطرأ حتى على السنة بعض المثقفين ، لا أقول التشكيك ولكن أقول لبس في الفهم أو خلط في التفكير . فتراهم يقولون : لماذا التربية الإسلامية .. ؟ أو بشكل آخر : ما هى الاضافة التى سوف تضيفها بحوث صممت أو تصمم في مجال التربية الإسلامية .. ؟ وانواقع أن نظرة حول النظم الفلسفية الأخرى سواء القديم منها أو الحديث ترينا أن تلك الأنظمة لم تفلح في وضع اطار عام تربوى فبعضها قد عالج الجانب المادى . والبعض الآخر قد عالج الجانب الروحى فقط وسوف نسوق في هذا المجال بعض الأدلة على ذلك :

فأفلاطون استخدم الفلاسفة كمبرر لحياة الترف في المجتمع كما استخدموا للدفاع عن القيم الأخلاقية والسياسية لطبقته الاجتماعية . كما وجد أن قيم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة متأصلة فيما يسمى بأبناء أو التركيب الخالد للعالم وبذلك خول أفلاطون لنفسه تنحية هذه القيم عن تناول الفحص والنقد والنقاش . من جانب الفرد العادى في المجتمع وقصر البحث في تلك القضايا على الفلاسفة وعلى الذين يتمتعون بوقت الفراغ ، ومن هنا يمكن أن نستنبط تفسير كل فلسفة أفلاطون سواء في نظرية المعرفة في العالم ، في الكون ، في الأخلاق ، في السياسة التربوية .

ونخرج بتلك النتيجة أن الفلسفة عند أفلاطون لم تكن حبا للحكمة كما أنها لم تبرأ من التحيز بل انها تهدف منذ البداية الى خدمة وظيفة اجتماعية محددة^(١) .

وحيثما نصل الى العصور الوسطى فإننا نلمح أن الفلاسفة المدرسين قاموا بتبرير المعتقدات التى أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة وبالتالي فإنهم أكدوا أولوية الايمان على التفكير وسمو الحقائق التى

(١) صادق سميان . الفلسفة والربية . محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية ، دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٦٢ ص ١٥ .

تدور حول ابدن على الحقائق العلمية ، ومن هنا أطلقوا ذلك المصطلح
ان « الفلسفة خادمة للدين » ••

كما اننا أيضا نشاهد في العصور المسيحية التالية . أن جزءا من
الفلسفة كان عبارة عن محاولات لوضع العلم في مكان محدد بحيث
لا يغطي على القيم الدينية . وبالتالي لا يؤثر على وضع نفوذ رجال
الدين •

أم في القرن التاسع عشر . فلقد وصل الاتجاه نحو التبرير الى
درجة كبيرة خصوصا على يد هيجل الذي برر باسم المثالية العقلية المذهب
الذي كادت أن تهددها بروز الروح العلمية وظهور الاتجاه الجديد نحو
الحكومة الشعبية^(٢) •

وفي أحضان الفلسفة الوجودية نرى أنها فلسفة ذاتية ميتافيزيقية
غير علمية وتأبى دائما من الاتجاه الاجتماعي . وأكثر من ذلك فالحلق
والتياس والفشل كل أولئك مظاهر الوجود في نظرهم • والوجوديون
لا يغيرون اهتماما لمشكلات الحياة العلمية . لأنها لا قيمة لها . بالإضافة
الى أنها قد تصرف الانسان عن التفكير في الموت الذي هو في نظرهم
غاية تجذب الوجود كله تجاهها^(٣) •

ونظرة حول تلك الفلسفات ترىنا أن الاتجاه التقليدي للفلسفة
يهتم بالبحث عن طبيعة الحقيقة المطلقة النهائية ، والتأمل في طبيعة
الأشياء في ذاتها كما أننا نلاحظ أن التشكيك في قيمة الفلسفة نابع من
الفلاسفة أنفسهم هل يقتصر على مناقشة المسائل العقلية النظرية
أم يزاوون الاسهام في الجوانب العملية للمشكلات •

ومن عجيب الأمر أن نرى بعض الفلسفات مثل الوجودية تحمل بين
ضياتها مقومات فشلها وعجزها عن الاتساق مع الحياة ، اذ كيف تفصل
تلك الفلسفة الانسان عن متطلبات الطبيعة الانسانية ، وكيف تتنكر لما
يصلح النفس البشرية ويضمن لها الحياة الكريمة ناهيك عن جعل تلك
الحياة وسيلة لحياة أخرى آزرية •



(٣) المرجع السابق ص ١٣

(٢) المرجع السابق ص ١٨

✽ نظرة الإسلام الى الفلسفة :

لما لم تخل الفلسفة من تركيزها على هدم نظريات علمية سابقة أو موازية لها ولما كان التشكيك يحتل جزءا كبيرا من منهج الفيلسوف ولما كانت القيم والعقائد يشوبها التشكيك عن طريق الفيلسوف المتحمس في غالب الأحيان لفلسفته الخاصة . لذلك فقد يجد الشبيب أنفسهم مضطرون الى اتباع فكر هذا الفيلسوف أو التفكير باستقلاليتهم في فلسفة أخرى خاصة تناسبهم . أقول : لما كان ذلك . بات واضحا مدى أهمية التربية الاسلامية كإطار نظري وعملي صالح للفرد والمجتمع يمارس الفرد من خلاله ما يصلح شئون دينه ودنياه كما يرى المجتمع أنه بتبنيه نظرية التربية الاسلامية .. قد انصاع الى أعلى الفلسفات : وأصدق المعتقدات .. وكيف لا !! وهي قد اشتقت من مصدرين كريمين : كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من تمسك بهما فقد هدى الى صراط مستقيم ومن تنحى عنهما ضل في مآهات الظلم والظلام « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتي » .

ومن هنا نرى التوافق العجيب . والتنسيق المبهر ، بين متطلبات الطبيعة الانسانية للفرد المسلم وسائر الحياة كلها بما ومن غيرها . وكذلك نرى التوفيق بين مصالح المسلم في دنياه وفي أخراه فالاسلام اذ يرغب في عمل الصالحات من أجل الآخرة . فانه أيضا يفتح الباب في استثمار الحياة الدنيا استثمارا في الخير للانسان وللجماعة ، ملاحظا أن بيتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » (٥) .

وهكذا أقر الاسلام العمل في الدنيا من أجل الآخرة . كما بيدو جليا كيف أن الاسلام بنظامه التربوي عنى بأمور الفرد والمجتمع جميعا ،

بل وفتح باب الاجتهاد بالرأى . فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة .
 .وفيما لا يتعارض مع أصل العقيدة . كما أننا نلمح أن الاسلام قد
 اختص قوما بالحكمة واختارهم الله سبحانه وتعالى من بين سائر خلقه
 « **يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** » (٦) .
 والحكمة هي « لباب كل خير . بحيث ان الانحراف عنها .
 أو التحريف فيها . أو زخرفتها بشبهة من الرياء : خروج عن رحاب
 لجادة . ودخول في مزلق الباطل » (٧) .

وبهذا المفهوم نجد انفراد الاسلام . بالنظرة التكاملية للانسان .
 بينما نرى كثيرا من الفلاسفة يقصرون نشاطهم على جوانب نظرية
 جدلية . ويبتعدون عن ميادين الصراع في قضايا المجتمع .
 وبهذا يبدو أن البرج العاجي للفلسفة . أو الانعزالية الفلسفية
 من دواعي التأكيد على عدم امكانية قيام الفلسفة أو وفائها بمتطلبات
 الكائن البشرى . في الوقت الذي نلمح فيه أن اختلاف الفلاسفة .
 راجع الى اختلاف القيم والأهداف التي يؤمنون بها . « ويجب ألا نتوقع
 استبعاد هذا الخلاف في الفلسفة اللهم الا اذا اجتمع الفلاسفة على
 القيم والأهداف الاجتماعية وعلى أساليب وطرق النقد والتحليل
 الاجتماعي » (٨) .

وهذا مما يدعم بل يؤكد أن ثبات قيم الاسلام ومناهجه مع امكانية
 المرونة في اتخاذ الأساليب المعينة على التنفيذ مما يركى انفراد نظرية
 لتربية الاسلامية عن سائر النظريات بالدوام والصلاحية . لكل مجتمع
 في أى زمان أو مكان . وأن تلك النظرية قد عالجت في الانسان الجانبين
 البدني والروحي .



* نظرة الاسلام الى العقل :

العقل بما أوتي من قدرة يستطيع أن ينسق المعلومات وينظمها
 . ويضع العلاقة بينها ، كما يبحث عن الأسباب والمسببات حولها . والعقل
 في كل هذه العملية لا يصل الا الى نتائج ربما يرجع عنها مع التقدم

(٦) البقرة : ٢٦٩

(٧) ابن الخطيب . اوضح التفسير ص ٥٧ (ب) .

(٨) صادق سمعان . مرجع سابق ص ٢٥

العلمى المستمر والعقل بهذا نظرا لاعتماده على الحواس التى كثيرا ما تخدع . لا يصل الى حقائق الأشياء . بل يصل الى وصفها فقط . وما كان كذلك كان عاجزا عن وضع المنهج المتكامل للإنسان .
 وإذا وصلنا الى هذه النقطة . فاننا نشاهد أن هذا العقل منوط بثلاثة أصناف من البشر : صنف متبلد الفكر . متحجر الفهم يقف عند حد النهم فهو انسان شره لا يلتقى بالا الا للمطعم والمشرى وكفى .
 وصنف آخر ربما يحظى بقدر من الذكاء غير أنه يستثمره فيمجر له نفعا . ويجاب عليه عائدا ماديا ، ولا شك أن هذين الصنفين من البشر لا خير فيهم . ولا يملكون قدرة على افادة المجتمع ، فضلا عن التقنيين ووضع الاطار الفكرى .

أما انصنف الثالث فهم العلماء . ومهما تعددت تخصصاتهم . وتفردت مذاهبهم ، فاننا وبلا أدنى شك نضعهم فى المرتبة الأولى . وكيف لا ؟ وهم الصفوة المختارة وأصحاب العقول المفكرة ونسأل : هل فى مكتة هؤلاء العلماء والفلاسفة . أن يقننوا للبشرية اطارا ومنهجيا دينيا يصلح لكل زمان ؟

والحقيقة التى تبقى هى أن قضايا الحب والاخاء والمساواة وتحقيق القدر الكافى من الأمن للإنسانية ، ما كانت لتقدر على تقنينه عقول الفلاسفة أو العلماء أو المفكرين ، مهما أوتوا من علم ومهما وصلوا الى صواب فى بعض القضايا العلمية . ومن هنا فلا يوجد بين نظريات الفلاسفة نظرية واحدة . صلحت أن تكون دستوراً لمن عاصر هذا الفيلسوف من الجماعة ، فضلا عما تلاه من عصور ، أو لحقه من أجيال . وربما بدا فى بعض العصور انبهار بعض المجتمعات وخصوصا فى قطاع الشباب . ببعض نظريات فلسفية لفيلسوف معين ، وقد تستمر تلك النظرية تؤدى دورها فى قيادة المجتمع ، طالما أن هناك من يحاول تلقينها للأفراد ، ولكن قد يحدث أنه بعد فترة زمنية محددة ينكشف أمام المجتمع سلبيات تلك النظرية وعجزها عن تحقيق الأمن والعدل والحب والاخاء والمساواة .

وإذا ثبت بهذا أن العقل البشرى قد عجز فى المجال الدنيوى ، وفى عالم المحسوسات ، فلا شك أنه يكون أشد عجزا فى مجال الجانب الغيبى ، ولا شك أنه عاجز عن معرفة كنه ذاته ، وعن معرفة حقيقة الروح التى هى قوام حركته كما هو عاجز عن ادراك ما وراء الموت

ومصير الانسان . وسائر القضايا الغيبية الأخرى من بعث وحساب
وجنة ونار .. الخ .

وعلى هذا فلنا أن نقرر في اطمئنان كامل أن الدين الذى هو الركيزة
الأساسية للتربية ليس من تصميم العقل . وانما هو من صنع الخالق
القادر . من لدن حكيم عليم . سميع بصير . يعلم خائنة الأعين وما تخفى
الصدور . يعلم السر وأخفى ..

ومن هنا فان الدين يوقف الانسان على حقائق تعجز عنها القوانين
الوضعية التى بخطيء من يعتقد أنها تأتى بسلوك سوى كامل متكامل ،
أو أنها ترقى الى حقيقة الدين الذى هو من عند الله .

* * *

* التربية الاسلامية حقيقة :

وعلى هذا الأساس . ومن هذا المنطلق . فانه لمن العبث كل العبث
ومن الخطأ كل الخطأ أن نتأرجح بين فلسفات غربية أو شرقية . لا هى
اسلامية ولا هى قرآنية . أقول : من العبث . لأننا وقد شاهدنا عجز
الانسان عن التقنين للبشرية بما يسعدها وما يرببها . وما ينظم حياتها ،
أحرى بنا أن ننظر في تراثنا . نستمد منه مقومات حياتنا . ونستعين
به على فلسفة أمور مجتمعتنا .

ومن هنا فلا نكون قد جانبنا الصواب اذا قررنا أن للإسلام نظرية
تسمى التربية لاسلامية . واذا كنا اليوم نبدو كما لو كنا نجافى هذه
النظرية . فهذا ليس راجعا في حد ذاته الى عيب في النظرية التربوية
الاسلامية — وحاشاها أن يصاحبها عيب أو يلزمها خلط — بقدر ما هو
راجع الى عيب فينا نحن المسلمين . وفي مدى استجابتنا لتلك النظرية .
ومن قدرتنا على التطبيق .

أفبعد هذا يتطرق الشك — عند من يساورهم الشك — نحو تربية
مصدرها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ أيتطرق الشك
نحو تربية استمدت وحى كل عناصر مقوماتها من السماء ؟

لا شك أن الخالق المبدع ، أقدر على وضع الأسس والمبادئ ،
والقوانين التى تضمن للانسان سعاده .

وعلى هذا فان الاسلام هو الدين العالمى الوحيد ، الذى انفرد
الى السبق . في تصميم اطار نظرى وعملى متكامل يصلح للتطبيق كما
يستهدف الانسان كله . روحه وجسده ظاهره وباطنه .

هذا في الوقت الذي نرى فيه أن التربية الوضعية ، قد تهتم
بالجانب الحسى ، والذي يقوم على إهمال كل ما يعدو الحس ويفارق
المحسوس ويؤمن إيماناً راسخاً بكل ما تراه العين وتحسه النفس .
فوضع من التربية وأساليبها ، كل ما ينظم الجوانب الحسية والحياتية
من زراعة وصناعة وتعليم وتشبيد بصرف النظر عن أية جوانب أخرى
تكون من متطلبات الطبيعة الانسانية والجماعات البشرية .

أما الاسلام فانه يربى الانسان كإنسان بصرف النظر عن انبيئه
لتي ينتمى اليها ، وبصرف النظر عن الأسرة التي استمد منها مقومات
حياته ، وبهذا يكون الاسلام قد غص الصُرف عن الأحساب والأنساب ،
والغنى والفقر ، ووضع مصلحة الانسان بالدرجة الأولى يربيه ، ويسعى
في ذلك في مساواة كاملة وفي عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الدلالة ، أننا نلمح في هذا القرن العشرين ، والذي
رتقت فيه الحياة المادية ، ووصلت الى ذروتها من جراء افكر المعاصر
أن الانسانية لم تنعم بعد بثمرة هذا الرقى وذلك التقدم ، حيث أن
تركيز كان بالدرجة الأولى ينحو للجانب المادى فقط ، مما ترتب
عليه اختفاء القيم الأصلية والروابط الأسرية والاجتماعية وانتشار
الأمراض النفسية .

كما أننا نلمح أيضاً الاحساس بالضياح بين القطاع الكبير من
الشباب والفتيات على المستوى الدولى والعالمى .. وكيف لا ؟

وتلك الاتجاهات المادية ، الماركسية منها والوجودية والبراجماتية
لا تولي وجهها الا شطر التعامل مع الانسان كمادة ؛ فلا تؤمن تلك
المذاهب الا بها ، فالانسان في نظر الماركسية (ترس) في آلة كبيرة
سماها المجتمع .

كما لا يخفى ما للوجودية من أثر بغيض فهمى التي أطلقت للانسان
العنان باسم الحرية ، وتأكيد الذات ، ليتخبط في القلق وحيدا بلا وازع
من ضمير أو خلق أو قوة عليا وتركته ليعتصره الصراع .

وان ننس لن ننسى البراجماتية ، التي تؤكد في غير ما حياء ولا خجل
أن كل ما جر نفعا ماديا عاجلا أو آجلا فهو الحق ، وما عداه فهو الباطل .
ولعل النتيجة القريبة لتلك الاتجاهات ، ربما تنعكس في تحقيق
هدف مادى دنيوى يتمثل في امتلاء المعدة بالطعام والشراب ؛ كما يتمثل
في توفير المسكن والملبس وسائر الكماليات .

غير أن الحقيقة تبقى مدوية . أن هذه الاتجاهات تنتج حنما
وبالضرورة نوعا من التخبط . ونوعا من القلق والسقوط . الذى أصبح
من أهم سمات هذا العصر . والذى كان نتيجة حتمية للتعامل مع الانسان
كمادة .

وانواقع أن الانسان مادة وروح . وبينما الجزء المادى يسده
بى الأرض فان الجزء الروحى يسمو به الى السماء .
أبعد هذا يمكن للعقل البشرى أن يضع أطارا دينيا أو منهجيا يمكنه
أن يحقق التوازن بين الجانبين ؟

الواقع وكما سبق أن ألمحنا أن العقل . أثناء تعامله مع الكون
يستمد المعلومات من المادة عن طريق الحواس . السمع أو البصر
أو الشم أو اللسان أو غيرها . ولما كان لتلك المعلومات دلالة خاصة .
فان نقلها الى العقل عن طريق تلك الحواس يخضع لمؤثرات كثيرة .
تؤثر على صدق النقل مما يترتب عليه تزويد العقل بمعلومات يشوبها
التشويش . ويسبب عليها الخلط . واذا تركنا هذا جانبنا لنرى أنظمة
أخرى . اتجهت شطر الجانب الروحى الذى يقوم على العناية بالروح .
وترك كل شئ يتصل بالحس . حينئذ ندرك ضرورة وأهمية التربية
الاسلامية التى وضعت فى المقام الأول الانسان بكيانه كله . جسمه
وروحه وعقله . واعترفت أن الانسان مجموعة من هذه العوامل كلها .
وأنه كيان واحد مترابط الأجزاء .

وعلى هذا الأساس فان التربية الاسلامية حقيقة لا تحتاج الى
دفاع وحق لا يقبل الجدل . غير أننا أردنا فى هذا الجزء أن نطرح بعض
الخيوط حول تلك النظرية لتكون بمثابة قاعدة قوية ننطلق من خلالها
نحو اعطاء نموذج وحيد تطبيقى يكون بمثابة ضرب المثل ، لنماذج عملية
أخرى فى المنهج الإسلامى ، نماذج تضمنت التشريعات الخاصة ببناء
الأسرة . سواء فيما يتعلق بالعلاقة الزوجية ، أو ما يتعلق بتربية الأبناء
والبنات . كذلك تناولت تلك النماذج العلاقات الانسانية . فيما يتصل
بسياسات الدول . والعلاقات على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات .
وفى ظل نماذج التربية الاسلامية نلمح درجات عالية من سمو
الجانب الأخلاقى سواء على مستوى الفرد ، أو على مستوى التعامل مع
الجماعة . حتى فى مجال المعاملات أعطى الاسلام نماذج عديدة لصيانة
أفراد المجتمع من الفقر والتخلف وكانت فريضة الزكاة من أركان
الاسلام التى ضمنت حفظ الحياة لقطاع كبير من أبناء الأمة من الفقراء

« والذين في أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم » (٩) ومنهج التربية الإسلامية بذلك الأسلوب يبنى المجتمع المسلم القائم على احترام العلاقات بين الأفراد . « والمجتمع الإسلامي هو مجتمع إنساني : يدعو الى الروابط الانسانية بين الأفراد في الدرجة الأولى •• كما يدعو الى تبادل المصالح المادية ، ولكن في محيط العلاقات الانسانية » (١٠) •

وسوف نستعرض بالتحليل لموقف نموذجي من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : كان فيه معلما ومربيا •

هذا الموقف هو : « مسرح الأحداث في حديث الافك » •

وتكمن مبررات اختيارنا لهذا النموذج في :

(أ) التعليم بالقُدوة والذي يتركز في الجانب الأخلاقي للرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الأحداث « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (١١) •

(ب) السلوك الواجب اتباعه في مواجهة الشائعات المغرضة والأكاذيب المدعاة •

(ج) العلاقات الوالدية • وكيف تستثمر لصالح الدين والدنيا •

(د) العلاقات الزوجية • وكيف يمكن أن نؤمن صيانتها ونحافظ عليها بالرغم مما قد يبدو في الأفق من ضباب أو غيوم حول أحد الزوجين •

(هـ) التريث في اتخاذ القرارات خصوصا اذا كانت تتعلق بمصير فرد الانسان •

* بين يدي حديث الافك :

بداية نهى الاسلام عن الغيبة ، وطلب من المسلم والمسلمة التحري في القول • وعدم تصديقه الا بعد التأكد من صحته وحتى عند التأكد من صحته نهى الاسلام عن ترويجه أو التشهير به وعدم الخوض فيه ، جلبا للمصالح ودرا للمفاسد ، وتجنبنا لأمر قد تتطور الى ارتكاب مخاطر كبيرة •

(٩) المعارج : ٢٤٠ ٢٥٠

(١٠) « منهج القرآن في تطوير المجتمع » مكتبة وهبة ١٩٧٩ ط ٢

١١١ الأحزاب : ٢١

ص ٤

ولا شك أن هذا جانب رئيسي في أخلاقيات الاسلام . يرتبط ارتباطا جوهريا بروح التربية الاسلامية التي تهدف الى بناء الانسان المسلم . والقرآن الكريم فيما يتعلق بحديث الافك . قد ذكر في عشر آيات متتاليات من سورة النور وقائع هذا الدرس التربوي . وما كان من خوض بعض المسلمين جريا وراء من روج للشائعات — في حق أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة النور :

« ان الذين جاءوا بالافك عصابة منك ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » (١٢) .

وفي هذا المقام يذكر الامام ابن كثير : « هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن أم المؤمنين رضى الله عنها حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت . والفرية التي غار الله عز وجل بها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « ان الذين جاءوا بالافك عصابة منك » أى جماعة منك . يعنى ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة — عبد الله بن سئول — رأس المنافقين . فانه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين .

فتكلموا به . وجوزه آخرون منهم وبقي ذلك الأمر قريبا من شهر حتى نزل القرآن . وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة » (١١) .

ولا شك أن هذه الواقعة فيها نهى ولفت للانتظار أن يتحرى المسلم الصدق في كل ما يقول أو يفعل .

والاسلام في هذا يهدف الى بناء العلاقات الانسانية على أسس تربوية سليمة ولا شك أن ما نشاهده في عالم اليوم . من هدر للكرامة ، وتحقير للفرد الانسان . كان نتيجة حتمية للتطرف الأخلاقي وعدم الالتزام بالسلوك السوى .

والقرآن الكريم . في أكثر من موضع يشير الى أن الفتنة أكبر وأشد من القتل « والفتنة أكبر من القتل ... » (١٤) .

يفسر المفسرون الفتنة في الآية بأنها الكفر والشرك . والكفر يكون باللسان كما يكون بالأفعال المخالفة لشرع الله .
وحينما نعيش أحداث هذه الواقعة فانتنا نجد أنفسنا أمام درس تربوي .

— المعلم فيه هو الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأسلوبه مع زوجته عائشة وأسلوبه مع أصحابه . ثم منهجه الذي اتبعه في علاج أخطر ما يمكن أن يصاب به المرء في أهله . وأيضا حسن الصنيع مع أبي بكر وهو مع ما له من منزلة وقدم صدق في الاسلام .

— والمتعلم من هذه الواقعة . هم المسلمون والمسلمات جميعا في شخص من عايش هذه الواقعة من الصحابة وخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضا أم المؤمنين عائشة وكيف واجهت في صبر وقوة تحمل هذا الأمر الجلل . وكيف صمدت أمام هذا التبهتان صمود الصادقات الصابرات الخاشعات القانتات .

— والمنهج المستخدم في هذا الدرس التربوي هو الاستقرائي التحليلي . حيث لم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمور تسير جريا وراء الهوى ولكن في ثبات الصادقين وفي عزم النبيين جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلومات من أصحابه وخدامه ؛ حتى أنزل الله عليه قرآنا يتلى فكان مسك الختام . لأعظم اختبار للنبي

(١٢) محمد على الصابوني « مختصر بفسير ابن كثير » المجلد الثاني

١٤١ البقرة : ٢١٧

صلى الله عليه وسلم في أهله وصدق الله العظيم حيث يقول : « الله أعلم
حيث يجمل رسالته » (١٥) .

وقد كانت أم المؤمنين عائشة ضمن من خرج في غزوة غزاها أنبى
صلى الله عليه وسلم بعد أن خرج سهمها في قرعة أجراها رسول الله
صلى الله عليه وسلم بين أهله فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم
من غزوته . خرجت عائشة رضى الله عنها من خبائها تفتش عن عقدها
الذى انقطع من صدرها . ولما عادت الى مكانها وجدتهم قد رحلو
ظانين أنها في هودجها ، ومن ثم مكثت في مكانها فنامنت .

تقول عائشة : وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد
عرس (١٦) من وراء الجيش . فأدلىج (١٧) فأصبح عند منزلى . فرأى سواد
إنسان نائم . فأتاني فعرفني حين رأيته . وقد كان رأي قبل الحجاب .
فاستيقظت باسترجاعه (١٨) حين عرفني فخرمت وجهي بجلبابى . والله
ما كمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أنخ راحلته .
فوضىء على يدها فركبتني . فأنطلق يقود بى الرحلة حتى أتيت الجيش
بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة . فهلك من هلك في شأنى (١٩) وكان
الذى تولى كبره « عبد الله بن أبى سلول » (٢٠) .

وهذا الدرس التربوى في بيت النبوة . في حد ذاته يحمل بين
حياته عوامل تبرئة أم المؤمنين مما لحق بها . إذ كيف يتصور عاقل .
أن يرتكب مسلم ومسلمة الفاحشة ثم يستعرضان راكبين أو راجلين .
أو أحدهما راكباً والآخر مرتجلاً أمام الناس ، وكان لسان حالهما يطلبان
كشف ما انستر وظهور ما أبهم . وبالرغم من ذلك فلقد انغمس البعض
في الحديث وتورطوا فيما نهى عنه الاسلام .

والواقع أننا نوجز الحديث في هذا الأمر لأن امثال هذه المواقف
الحكم الفصل فيها هو رب العالمين . ولذلك فالتبرئة تتم في هذا
النموذج العملى من قبل رب العباد . السميع ، اللطيف . الخير الذى
يعلم السر وأخفى .

(١٥) الأنعام : ١٢٤

(١٦) عرس من التعريس وهو الإقامة ليلاً .

(١٧) فادلىج : سار ليلاً .

(١٨) باسترجاعه : ردد دعاء في مقام الاستغراب مما رآه .

(١٩) فهلك من هلك في شأنى : قالوا ما به استحقوا الهلاك .

(٢٠) مختصر بن كثير . مرجع سابق ص ٥٨٧

ومن عجيب الأمر أن عائشة رضى الله عنها . تمكث شهرا لا تدرى عن حديث الافك شيئا . غير أنها تلمح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدم لها اللطف الذى كانت تراه منه خصوصا عندما يعتل بدنها أو تستكى . وهذا هو الذى كان يريها .

وإذا كان الاسلام يدعو الى التأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم والذى كان خلقه القرآن . فإن لنا فى صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . لأعظم درس تربوى من خير رسول .

فالمعلم الأول : محمد صلى الله عليه وسلم . لم يشأ أن يفجأ أو يفجى زوجته عائشة بالواقعة رغم علمه بما يتناقله البعض فى شأنها . ولكنه يضبط نفسه انتظارا لما تسفر عنه الاستقراءات والتحليلات وهذا يتم بنمط تربوى سليم .

وعندما عمت عائشة بحديث الافك . ما كان الا أن استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذهب لأبويها .

تقول عائشة : « فقلت له : أئاذن لى أن آتى أبوى . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما . فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمتاه .. ماذا يتحدث الناس ؟ فقلت : أى بنية .. هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها .. قالت فقلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى » (٢١) .

* * *

* المنهج الاستقرائى فى المعالجة :

رأينا كيف تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبر ورباطة جأش لمدة شهر أو يزيد ما كان من حديث الافك . لم يغير فى سلوكه مع زوجته . ولم ينفعل ولم يصبه ما يمكن أن يصيب غيره فى مثل هذا الموقف . وخصوصا اذا كان فى موقف القائد ، كما أنه لم يلق باللوم على أحد بعينه ولكنه استخدم منهج الاستقراء وهو تتبع الواقعة وأبعادها كما رويت عن أصحابه صلوات الله وتسليماته عليه .

تقول عائشة : « فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم » على ابن أبي طالب « و (أسامة بن زيد » حين استبثب الوحي . يسألها ويستشيرهما في غراق أهله قانت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله . وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال أسامة : يا رسول الله .. أهك ولا نعلم الا خيرا : وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله .. لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وان تسأل الجارية تصدقك الخبر . قانت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : « أي بريرة .. هل رأيت من شيء يريبك من عائشة » ؟ فقالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه . فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول . فقالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : يا معشر المسلمين .. من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا . ونقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا . وما كن يدخل على أهلي الا معي » . فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضى الله عنه فقال : أنا أعذك منه يا رسول الله . ان كان من الأوس ضربنا عنقه . وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية . فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله . ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيد ابن حضير وهو بن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله . فانك منافق تجادل عن المنافق . فتناور الحيان الأوس والخزرج . حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢٢) .

كل هذا والمعاناة تشتد بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وتبكي بكاء يفق الأكباد وتستأذن عليها وهي على تلك الحال امرأة من الأنصار فتأذن لها عائشة فتبكي المرأة بكاء عائشة رضى الله عنها . وبينما هي كذلك دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت :

ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأنى
تنى •

قالت : ففتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس • ثم
قال : « أما بعد • يا عائشة • • خافه قد بلغنى عنك كذا وكذا • فان كنت
بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبى اليه •
فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى
رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه
غضرة • فقالت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال :
والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت لأمى :
أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت : والله ما أدرى ما أقول
لرسول الله صلى الله عليه وسلم • قائت فقالت وأنا جارية حديثة السن
لا أفرا كثيرا من القرآن : والله لقد علمت • لقد سمعتم بهذا الحديث
حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به : فلو كن قلت لكم انى بريئة والله
بعنم انى بريئة • لا تصدقوننى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه
بريئة لتصدقننى • فوالله ما أجد لى ولكم مثالا الا كما قال أبو يوسف :
« فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » (٢٣) قالت : ثم تحولت
فماضطجعت على فراشى • قالت : وأنا والله أعلم حينئذ انى بريئة وأن
الله تعالى مبرئى (٢٤) ببراءتى • ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى
روحى يتلى • ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى •
ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤى
يبرئنى الله بها • قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم
مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه
فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (٢٥) عند الوحي حتى انه لينحدر منه
مثل الجمان (٢٦) من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل

(٢٣) يوسف : ١٨

(٢٤) مبرئى • تعنى أن الله سوف يبرئها وعائشة بهذا تزداد ثقتها
بربها • غير انها رغم تعجلها فى طلب البراءة فانها لم تكن لتتوقع أن ينزل
فى شأنها قرآن يتلى • فمبرئى هنا توقع عائشة أن يبرئها الله •

(٢٥) البرحاء : الشدة •

(٢٦) الجمان : الفضة • أى أن العرق تصبب منه فى لون الفضة

أو الدر •

عليه قالت : فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشرى يا عائشة . أما الله عز وجل فقد برأك » (٢٧) .

وهكذا يسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج الاستقراء فينتبع الخبر من اجارية ثم يتتبع الوسيلة المناسبة للعقاب من الصحابة . ولا يهمل صاحبة الشأن . • فيطيب خاطرهما بل ويفتح لها مجال التوبة . وأيضا موقف عائشة من صبرها وتحملها وعدم تبرمها حينما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته الأولى وموقفها حينما حاولت أن تستنطق أبيه لعلهما يردان عنها غائلة الافك . وفي تواضع الصفوة المختارة من المسلمين الصادقين وأصحاب قدم الصدق في الاسلام يجيبان بما يندر أن نجد من أبوين في مثل ظروفهما : والله ما نجد ما نفوله برسول الله صلى الله عليه وسلم . •

ولذا فلقد بدا واضحا أن المعلم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد الحق فيسلك المنهج التتبعي من أجله وأن عائشة تصمد في أدب وتواضع الزوجة الصالحة الرشيدة المؤمنة المستوثقة . • فلم تصرخ ولم تنهيج وإنما تواضعت تواضع التلميذ من أستاذه . وأبو بكر وزوجه حريصان أن يراقبا الدرس العملي في إيمان الصادقين المستوثقين في الله وفي رسوله والحريصين على محبة معلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . •

والجميع ينشد الحق . والحق انذى لا مراء فيه ولا جدال حوله . والجميع يتقرب إلى الله قصد السبيل طالما صدقت انية وخلصت لله رب العالمين واستكمالا لهذا الدرس العملي فاننا نلمح أن الطبيعة الانسانية بما ركب فيها من دوافع نفسية ونوازع فيها جانب شيطاني قد يكون أحيانا كامنا في النفس البشرية غير أنه يبدو على السطح في الوقت المناسب أقول : نلمح أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه يعتريه نوع من روح الانتقام الأدبي والمادى ممن تسبب في الترويج لحديث الافك وهو مسطح بن أثاثه بعد أن نزل قرآن يتلى ويرى عائشة رضى الله عنها مما التصق بها . •

تقول عائشة رضى الله عنها : « فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر رضى الله عنه . وكان ينفق على مسطح بن أثاثه لقرابته منه وفقره :

رأيه لا أنفق عليه شيئا بعد الذي قال لعائشة . فأنزل الله تعالى :
 « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين
 والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله
 لكم ، والله غفور رحيم » (٢٨) .

فقال أبو بكر : بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لى . فرجع الى
 مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه ابدا » (٢٩) .

ونلمح في هذا السلوك القدوة الصالحة المتمثلة في مسلك أبى بكر
 الصديق رضى الله عنه تجاه مسطح بن أثاثه كما نلمح العفو والمسامحة
 وعدم اللجوء الى الانتقام من الظالم خصوصا اذا كان الانسان في موقف
 أقوى يتيسر فيه منهجية العفو « الذين ينفقون في السراء والضراء
 والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٣٠) .

بهذا العرض لنموذج عملى في مجال التربية الاسلامية الرشيدة
 يمكننا أن نستنتج السمات السلوكية الصحيحة التى يجب أن يتخلق
 بها الانسان المسلم :

- ١ — الالتزام بالصدق في القول والوفاء بالعمل .
- ٢ — الحذر والحيلة في تقبل المعلومات .
- ٣ — الابتعاد عن مظان الشبهات .
- ٤ — عدم السرعة في إصدار الاحكام .
- ٥ — استخدام منهج الاستقراء في علاج المشكلات .
- ٦ — انتقضى الى أبعد مدى في سبيل الوصول الى الصواب .
- ٧ — انتسلح بالصبر في الأمور المعضلة .
- ٨ — استبطان الأمور بالشكل العلمى السليم .

* * *

(٢٨) النور : ٢٢

(٢٩) مختصر ابن كثير . مرجع سابق ص ٥٨٩

(٣٠) آل عمران : ١٣٤